من كتب التراث :

رسائل عبد العزيز بن يوسف

أ . د . محمد يونس عبد العال*

كان عبد العزيز بن يوسف (ت٣٨٨هـ) من كتّاب القرن الرابع الهجري المشهورين ، تقلد ديوان الرسائل لأقوي حكام بني بويه وأسْيرهم ذكراً ، وهو عضد الدولة الذي حكم فارس سنة ٣٣٨ ، ثم بلدانا أخرى كثيرة فتحها وضمّها إلى ملكه ، وتوفي سنة ٣٧٢ عن ثمان وأربعين سنة تقريبا .

ومما ينسب إلى أبي القاسم الصاحب بن عباد(ت٣٨٥) قوله : «كُتّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابي ، ولو شئت ذكرت الرابع» يعني نفسه .

ولكن عبد العزيز كان أقلّ شهرة في المصادر التاريخية والأدبية ، فقد غفل عنه ابن النديم ولم يذكره ، وأهمله مسكويه في كتابه التاريخي «تجارب الأمم» ، فخلا ـ فيما نعرفه منه ـ من أية إشارة إليه ، مع كثرة ما أورده من أخبار عضد الدولة وحروبه ، ومع أن مسكويه وعبد العزيز كانا من ندمائه المقربين . أما المصادر القليلة التي أشارت إليه إشارات عارضة فصورته فيها شاحبة باهتة .

ولأبي منصور الثعالبي ـ دون غيره ـ فضل الاهتمام به ، فقد ترجم له ونوّه به واحتفل في «يتيمة الدهر» بنثره وشعره ، ولكنه لم يفرد له بابا مستقلا كما أفرد لكل من أبي محمد المهلبي وابن العميد والصابي والصاحب ، فأشرك معه اثنين آخرين تحت عنوان «في ذكر ثلاثة من كتاب آل بويه يجرون مجرى الوزراء» كما ذكره أيضا بين البلغاء الذين اعتمد عليهم في كتابه «سحر البلاغة وسر البراعة» فروى بعض عباراته بعد عنوان «ما أخرج من كلام أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف» كما روى بعض كلامه في «الإعجاز والإيجاز» وطائفة من أشعاره في «خاص الخاص» .

وقد حفظ الزمن له مجموعة من رسائله تضمنها مخطوط مودع في مكتبة برلين ، عنوانه «كتاب فيه رسائل الوزير أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي الكاتب» «رحمه الله» ،

* أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

وكان لكارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربى» فضل تنبيهي إلى هذا المخطوط ، فرغبت في الاطلاع عليه ، وأسعفتني مكتبة برلين بالحصول علي مصورة منه ، وتبينت أنه يشتمل على مجموعة متنوعة من الرسائل كتبها مؤلفها في أثناء عمله كاتبا لعضد الدولة ، بعضها شخصي إلى زملائه وأصدقائه ، مثل الصابي والصاحب وأبي الفتح بن العميد ، وبعضها الآخر رسمِيّ كتبه عن الحاكم في الشئون السياسية والعسكرية المختلفة للدولة . ولم يكن في المخطوط ذكر لاسم ناسخه ، ولكنه مكتوب بخط نسخي واضح يرجح أنه من كتابات القرن العاشر الهجري تقريبا ، ولكن يظهر من كتابة الناسخ ضعف نصيبه من الدراية بالعربية وأساليبها ، فهو يرسم ما استغلق على فهمه من الألفاظ والعبارات ـ وذلك عنده الكثير ـ كيفما اتفق له ، وكثيرا ما يخطئ إذا رغب في ضبط بعض الحروف بالشكل ، وقد بدا أيضا أنه ممن لا يميزون أحيانا بين الضاد والظاء .

ومن المرجح أنه نقل ما نسخه من مخطوط ناقص ضاعت منه بعض الأوراق ، فاختلت صفحاته ، ولم يستطع أن يقيم أوده ويرتب أوراقه على الوجه الصحيح . وربما كان ذلك الاختلال أو النقص البادي في المخطوط الذي بين أيدينا قد حدث بعد أن أتم ناسخه عمله ، ثم فقد منه ما فقد في أثناء رحلته الطويلة مع متملكيه وفي خزائن الكتب المختلفة في الشرق والغرب . ويلحظ قارئ المخطوط بسهولة اضطراب السياق واختلاله وفقدان الانتظام في عبارته ، فيما بين نهايات الصفحات اليمنى لبعض اللوحات وبدايات صفحاتها اليسرى .

وتألفت المصورة من (٩٥) لوحة ، كل لوحة ذات صفحتين ، وقد اشتملت اللوحة الأولى على صورة صفحة واحدة هي صفحة الغلاف ، فيها عنوان المخطوط وبعض الكتابات التي كتبها متملكوه أو غيرهم ، كما اشتملت اللوحة الأخيرة على صورة صفحة واحدة أيضا .

وفي كل صفحة من الصفحات المكتوبة (١٥) سطرا ، في كل سطر حوالي (١٠) كلمات ، أما الترقيم الذي رقمت به اللوحات بدءا من (١) إلى (٩٥) فهو بخط مخالف ولعله من عمل المكتبة المحفوظ فيها المخطوط .

وعلى صفحة الغلاف ـ كما سبق القول ـ كتابات وتملكات ، منها تملك وقع تحت العنوان مباشرة ، نصه : «وقع في نوبة أذل عباد الله الأكرم الفقير الحقير حسين بن رستم عفا الله عنه وعن والديه بالقاهرة المعزية صين ما بها عن كل أذية ورزية» ومما أمكن قراءته أيضا من التملكات : «انتقل إلى علم الدين أحمد بن حسن بن إسحاق الشهروري غفر الله له

ولجماعة المسلمين ورزقه الله علما ينتفع به وينور عليه ويغفر جميع خطاياه ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين» .

وقد افتتح المخطوط بالبسملة ، ثم بلفظ الاستعانة : «وبه أستعين» ، ثم عنوان الرسالة مكتوبا على سطرين : «نسخة الكتاب المنشأ بعقب/العبور في كلويذان» وأول هذه الرسالة : «للنعم مراتب تتناصف حسنا وتتفاوت ، وتتفق شرفا وتتباين ، ولكل منها على من منحها حق من الشكر يوفق الله له من شاء من عبادة ليرتهن بالتأييد عطيته ، ويصل بالمزيد نعمته . . .»

وختام المخطوط قوله : « . . . وأفاء الله علينا وعلى عامة أوليائنا من نعم أعدائنا مالا وكراعا وسلاحا وأثاثا ما لا يعد ولا يحصى فالحمد لله» ثم أنهى الناسخ بخط أكبر وعلى سطر واحد بقوله : «وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه» .

وقد تضمن المخطوط ثمانين رسالة ، ورد بعضها كاملا ، وبعضها الآخر فصولا مختارة منتزعة من ثنايا رسائل أخرى أو من صدورها . ومنها ما هو ديواني أو إخواني ، ومنها ما هو ابتداء أو جواب . أما موضوعاتها فمتعددة ، ففيها رسائل فتوحات ، وعهود ، وشروط ، وتذاكر وإخوانيات مختلفة في التشوق والشكر والمدح والتهنئة والشفاعة والعتاب والتعزية والعيادة . ولم يحرص جامع هذه الرسائل أو ناسخها على تصنيفها أو تبويبها تبعا لتلك الأغراض والأشكال .

وقد وصف بروكلمان المخطوط بأنه رسائل «إلى مختلف العظماء ، تتضمن أخبارا طريفة عن دولة البويهيين في السنوات ٣٣٥ ـ ٣٨٠هـ = ٩٤٦ ـ ٩٩٠م» . وذلك صحيح إلى حد كبير ، فأظهر ما يميز هذه المجموعة أنها ـ من حيث قيمتها التاريخية ـ عرضت لأحداث متعددة ، لاسيما ما يتصل بحروب بني بويه وعلاقات بعضهم ببعض في السنوات ٣٦٣ ـ ٣٧٢هـ ، كما عرضت لأخبار وإشارات كثيرة لأعيان ذلك العصر من الأمراء والوزراء والكتاب والولاة والقضاة والحجاب وقادة الجيوش . وقد كتب عبد العزيز بن يوسف بعض هذه الرسائل عن عضد الدولة وبعضها الآخر عن نفسه . وممن كتب إليهم : مؤيد الدولة ووزيره الصاحب ، وأبوالفتح بن العميد ، وأبو تغلب الحمداني ، والقرامطة الهجريون ، وفخر الدولة وأبوالحسن سيمجور ، وظهير الدولة بهستون بن وشمكير ، وركن الدولة ، وحاكم مصر ، وحاكم عمان ، وعابد بن علي ، والصابي ، وأبو سهل سعيد بن الفضل . وكانت رسائل الفتوح ـ ويصل عددها إلى بضع عشرة ـ توجه إلى الناس عامة لتُقرأ على المنابر أو في

المحافل . وربما أشار عنوان الرسالة إلى اسم من أرسلت إليه ، وربما عرف شخصه من سياقها ومما يرد فيها من الأساليب . وقد وصل عدد الرسائل التي تعذّر معرفة الأشخاص الذين أرسلت إليهم حوالي العشرين .

وقد عمدت الرسائل ـ في شكلها المرويّ في المخطوط ـ إلي ألوان من الحذف والاختصارات ، فكثيرا ما استعملت لفظة «كذا» بديلاعن التأريخ ، مثل : «كتابنا يوم كذا . . .» أو عن المواضع ، مثل : «وصل كتابك الصادر من كذا . . .» أو عن أمور شتى ، مثل : «وقر عندي في باب كذا . . .» و « . . . حملت أبا فلان في أمر كذا وكذا . . .» وإذا أريد إنهاء الرسالة اختصارا ، والاكتفاء ببعض الفصول والضرب صفحا عن سائرهم ، اختتم بمثل : «وقد تأملت كذا وكذا . . .» و «فإن رأيت أن ينعم فكذا وكذا» ، وربما استبدل ذلك باللفظ «وكان وكان» في اختتام الفصول المختارة دلالة على أن للرسالة بقية محذوفة .

وكانت الكناية بلفظ «فلان» مما عمد إليه المخطوط بديلا عن التصريح بالأعلام ، ولعل الدافع إلى ذلك هو الرغبة في التخفيف بحذف ما يمكن حذفه من تلك الأعلام التي لم يعد لذكرها ضرورة تفيد القارئ ، ومن أمثلة هذا اللون من الاختصار قوله : «اتصل بي خبر الحادثة في فلان » و « أحطت بما زود عن فلان من الرسائل» .

وقد خلت الرسائل من التأريخات التي تحدد زمن كتابة كل منها ، باستثناء أحد العهود ، نصّ في ختامه على أنه كتب في شوال سنة ٣٥٩ ، ولكن المتأمل في بعض السياقات وبخاصة ما اشتمل منها على أخبار تاريخية بارزة ، يستطيع أن يستدل علي السنة أو الفترة التي كتبت فيها ، فمنها ما جرت أحداثه خلال السنتين ٣٦٣ ـ ٣٦٤ بين الأتراك والبويهيين في العراق ، وكان عضد الدولة قد خف بجيوشه من فارس للمعاونة ، ومنها ما جرى بعد وفاة ركن الدولة في المحرم من سنة ٣٦٦ وما أعقبها من تقسيم مملكته بين أبنائه ثم استيلاء عضد الدولة على بغداد في سنة ٣٦٧ ، وحروبه المتتالية بعد ذلك مع أبي تغلب الحمداني في الموصل وديار مضر ، ومع أبناء حسنويه الكردي في قرميسين سنتي ٣٦٨ ، ٣٦٩ ومع قابوس بن وشمكير في جرجان وطبرستان سنة ٣٧١ ، أما آخر ما يمكن التوصل إلى سنة كتابته فهو رسالة في ذكر الهدنة مع الروم سنة ٣٧٢ .

وتثير هذه المجموعة من الرسائل بعض التساؤل عن رواتها والظروف التي أحاطت بجمعها ، وذلك مما يعسر معرفته والوصول فيه إلى حقائق ثابتة ، والمؤكد أنها ليست كل ما

أنشأه مؤلفها من رسائل ، وإنما هي مختارات كتبت في فترات زمنية متقاربة ، ومن المؤكد أيضا ـ وذلك أمر يتطلبه توثيق النصوص بالدرجة الأولى تمهيدا لتحقيقها ـ أنها صحيحة النسبة إلى كاتبها عبد العزيز بن يوسف ، لا يعتور ذلك أدنى شك أو لبس ، لأسباب كثيرة ، منها ما يتعلق بمضامين الرسائل وما احتوته من المعاني والأحداث وما صوّرته من الشخصيات ، ومنها ـ وهو الأهم ـ أن فصولا كثيرة مما اختاره الثعالبي لعبد العزيز في «يتيمة الدهر» أو في «سحر البلاغة» قد ورد في ذلك المخطوط .

وربما كان الثعالبي ـ كما سبق القول ـ هو المؤلف الوحيد الذي اهتم برواية ما راقه من نثر عبد العزيز وشعره ، وقد استهل روايته في اليتيمة بقوله : «وأنا أورد من غرر نثره التي تعرب عن أدب فضفاض ، وخاطر بالإجادة والإحسان فياض ، ومن لُمَع شعره التي هي أحسن من زهر الرياض ، وأسلس من الماء على الرضراض ، ما هو شرط هذا الكتاب المشتمل على ملح الآداب» ، ثم أثبت فصولا من ديوانياته بعد عنوان : «ما أخرج من سلطانيته» في أربعة عشر فصلا ، لم يتجاوز بعضها سطرين ، وطال بعضها إلى ما يقرب من عشرين ، وقد ورد منها سبعة في رسائله المخطوطة ، وكان ورودها عند الثعالبي متتابعا تقريبا كتتابعها في المخطوط ، مما قد يشير إلى أنه اختارها من مصدر واحد ، وقد بدأ عنوان كل منها بلفظ : «ومن كتاب» كما أثبت الثعالبي تحت عنوان : «ما أخرج من إخوانياته» تسعة فصول ، أقصرها من أربعة أسطر ، وأطولها ـ وهو رسالة كاملة ـ من ثلاثين ، وقد ورد خمسة منها في المخطوط .

وكنت بين الحين والحين أطالع رسائل المخطوط أتأمل موضوعاتها وأساليبها وألفاظها ، مقوِّماً ما يُستطاع تقويمه مما أفسده ناسخوها ، مفسرا ما غمض وأشكل من معانيها ، موازنا بين ما عرضت له من أحداث أو أشخاص أو مواضع أو غيرها ، وما أشبهها من كتابات الأدباء والإخباريين والتراجمة ، وتيقنت أن مثل هذا الأثر جدير بإذاعته ونشره ، لأنه نص قديم أفلت لحسن حظه من الضياع في رحلته الطويلة التي بلغت ما يزيد على ألف عام ، وظل حبيس المكتبات أزمانا طويلة ، ولأن من حقه أن يخرج من محبسه ليتعرف الناس ما فيه ويستفيدوا ما ينفعهم منه ، وأحسب أن فوائده الثقافية العامة ، وبخاصة الأدبية واللغوية والتاريخية والاجتماعية لا تقف عند حد .

والمخطوط ـ فيما أظنه بعد طول السؤال ـ وحيد لا ثاني له ، فيه مواضع تحريف يستغلق الوصول فيها إلى صحة أو وجه يقنع ويرضي ، وفيه اختلال واضح ـ كما سبق القول

ـ بين نهايات بعض الصفحات وبدايات ما يليها مما يؤكد أن بضع أوراق على الأقل قد نقصت وانفصلت ففقدت ، أو وضعها القائمون على بعض المكتبات في غير مكانها مع مخطوط آخر . وقد يقال إن هذه الرسائل ـ شأنها شأن كثير غيرها من ألوان النثر والشعر ـ لا تعرض لأحوال الجمهور من الناس وما يضطرب فيه المجتمع من القضايا والمشكلات ، وإنها لا تعدو الحديث عن الحروب والمعارك وعن الطبقات العليا من الحكام والولاة ، وذلك صحيح إلى حد كبير ، ولكنه لا يجوز أن يكون مبرراً لرفضها وإنكار جدواها لأنها تحمل إلى جانب تلك الاتجاهات أبعادا أخرى ، ولا تخلو من إشارات لها مغزاها عن طوائف مختلفة من الناس والأجناس والثقافات ، كما تقدم للمتأدبين واللغويين متونا لبست أثوابا فضفاضة ، وحولت الأحاديث عن الحروب والأخبار السياسية المتنوعة من شكلها الموجز العادي كما يظهر في كتابات المؤرخين ومن جرى مجراهم إلى قطع أدبية ، كانت بمقاييس عصرها وبمقاييس من يعجب بها في عصرنا وفي كل عصر غاية النهاية في البراعة وجودة الأداء ، فكانت أهلاً لأن تروى وتدوَّن وأن يتوفر على كتابتها النساخ وأن يحرص المصنفون على أن يجمعوها وأن يختاروا منها ما يروقهم في دوواين شغلت مساحة لا يمكن تجاهلها في الأدب العربي . ولهذه الأسباب وغيرها ينبغي ـ مهما كانت العوائق ـ نشر هذه الرسائل وتحقيقها تحقيقا علميا دقيقا يخرجها في صورة أقرب ما تكون إلى الصحة والاكتمال ، وهو ما أرجو أن أوفق إليه إن شاء الله تعالى .